المرأة شاهدًا شعريًا في شرح ابن عقيل

دراسة في ضوء النقد الثقافي

م.د. خالد حويِّــر الشمس

جامعة ذي قار / كلية الآداب

ملخص البحث:

البحث ممازجة بين رؤيتين، إحداهما نحوية قواعدية، وأخرى نقدية تنتمي إلى العصر الحديث، ألا وهي نظرية النقد الثقافي، ومع اختلافهما يلتقيان في كونهما معياريين. وفي السياق نفسه سيكون النتاج فيه عبارة عن قراءة نسقية تقوم على التأويل لسبب لجوء النحوي آبن عقيل –بوصفه بيئة للبحث– إلى اختيار هذا الشاهد المختص بالمرأة من دون غيره، أي الفكرة التفتيش عن المحرِّك، والعلة لهذا الاختيار، فكانت ثقافة مجتمعية متمثلة بميل الرجل نحو المرأة ميلًا جنسيًا، أو ميلا قداسويًا، أو قدحًا بمكانتها يقتضي التقليل من شأنها.

وهذه القراءة المضمرة، وتحكُّم الثقافة بوصفها مؤلِّفًا خفيًّا من أهم أطروحات النقد الثقافي التي تبنَّاها، وطورها الناقد العربي عبد الله الغذامي مع لحاظ أنَّ هذا النقد يشتغل على الخطاب والبحث عن غير الجمالي، والتنويه أن البحث لا يشتغل على النص الذي ذكرت فيه المرأة وإنما على محاولة النحوي بلجوئه إلى هذا البيت من دون غيره.

ولتحقيـــــــق هذا المسعى، وهذه الرؤية بدأ البحث بمدخل تعريفي للشاهد وللنقد الثقافي، ثم مبحث أول في أجناس النساء، فكانت أربعة، ولهذه الأجناس أنواع باعتبار أنَّ الجنس أعم مـــن النوع. الجنس الأول: المرأة المفردة، وأنواعه: الأم، والزوجة، والبنت، والحبيبة، والجارة، والجارية، والعمة، والخالة. والجنس الثاني: مجموعة نساء ذات أوصـــــــــاف، نحو: الغواني مثلًا. والجنس الثالث: المرأة العامة. والجنس الرابع المرأة الخاصة المسماة، نحو: سلمى، ومطر مثلًا.

وتحرَّى المبحث الثاني الدلالات الظاهرة للاستشهاد، فكانت مقاصد نحوية مثل: تدوين القاعدة، والاحتجاج لخلاف لنحوي، ولرفد الضعيف، والنادر، والقليل، والشاذ، وهكذا...

إلى أنْ وصل الأمر للمبحث الثالث ليستجلي الدلالات المضمرة للاستشهاد وهي على صورتين، الأولى الصورة الإيجابية لها، نحو: التعلق بها، وذكر محامدها، كونها وضع فخر، وقداسة. والأخرى الصورة السلبية، وتقوم على الحطُّ من شأنها، وذمها، واظهار نسق الفحولة عليها بوساطة الممارسة الجنسية، وعدم الالتزام بالحدود معها سواء أكانت متزوجة أم لا. ثم الاعتزاز بثقافة الجسد من خلال ذكر مفاتنها نحو: الْجِيْد، والصدر، وغيرهما.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والدعاء للثلَّة المخلصين من أهل العلم.

إذا شئنا تصنيف هذا البحث، فلن يكون نحويا بحتا، بل هو محاولة في بحث التفكير النحوي عن طريق الممازجة بين رؤيتين مختلفتين في المنهج، إحداهما قديمة نحوية صِرفة ذات توجه صُوري قواعدي، والأخرى نقدية حديثة ، بل أحدث ما في الساحة النقدية العالمية والعربية ألا وهي أطروحة النقد الثقافي، التي تبناها الناقد العربي عبد الله الغذامي. وثمة ملتقى بين المنهجين لأنهما معياريان كلاهما.

فكرة البحث أن النحوي المؤلف يستعمل هذه الشواهد لنسق ظاهر تمثَّل بالدلالة الظاهرة أو موضع الشاهد كما يسميه دارسو النحو، ولنسق مضمر لا يعيه المؤلف تُمليه عليه الثقافة العربية، وهنا رؤية البحث، وفرضيته، وعلى وفق هذه الفرضية تكون أطروحة الغذامي صالحة للبحث في النحو العربي؛ كون النحوي لمَّا يلجأ إلى هذا اللون من الشواهد يُعرب عن وظيفة نسقية.

الباحث معنيٌّ باستجلاء النسقين لاستعمال الشواهد الشعرية التي عنت المرأة في بيئة بحثية محصورة؛ لتكون النتائج ملموسة، فاخترت شرح ٱبن عقيل ت٧٦٩هـ بوصفه ميدانًا مع التنويه بأنَّ ما ينطبق على ٱبن عقيل ينطبق على أغلب النحاة؛ لأنَّهم قد كرروا الشاهد نفسه في غالب الأحيان، وفي الموضوعات نفسها.

وبناءً على هذه المنطلقات قُسِّم البحث على مدخل، وثلاثة مباحث.

نهد المدخل مفهوم الشاهد، ومفهوم النقد الثقافي، وإن كان مفهومهما واضحًا في الدرس اللساني، إلا أن رغبة الباحث، ومتطلبات منهج البحث ألجأت إليهما، ليكون لدى القارئ تصور معين عنهما.

وجاء المبحث الأول بعنوان (أجناس النساء)، وسلط الضوء على تلك الأجناس الأربعة بأنواعها المتعددة.

ويتحرَّى المبحث الثاني الأنساقَ الظاهرة لاستعمال الشواهد الشعرية التي موضوعها المرأة، فكانت متعددة وصلت إلى أكثر من خمسةَ عشرَ نسقًا ظاهرًا يصرِّح بها النحوي.

وتكفل المبحث الثالث ببيان الأنساق المضمرة وراء استعمال هذه الشواهد، أي بحسب القراءة التأويلية لها.

أتمنى على القارئ قبول الفكرة؛ لأنها أطروحة يصعب قبولها من القراء المختصين؛ كونه محاولة جديدة تدخل في الظن، والتخرُّص أكثر من أي لون آخر من ألوان الحقيقة، وحسبي أني لم أقصر قط ومن الله التوفيق.

مدخل تعريفي:

الشاهد/ النسق الثقافي

لتكون الصورة جلية عن طبيعة الشواهد النحوية المختصة بالمرأة التي انتقاها ٱبن عقيل في شرحه لألفية ٱبن مالك، ألجأُ إلى بيان مفهوم الشاهد، الذي تتنازعه علوم عدة،[١] ففي اللغة: بمعنى الحضور. وفي التصوف: بمعنى المعشوق. وفي النحو: بمعنى الخبر القاطع الموثوق، يستعمله اللغوي، أو النحوي، أو المفسر مرويًا عن الناطق باللغة موضوع الدراسة، ويكون الكلام المحتج به في العربية ثلاثة أقسام: آية قرآنية، وحديثا نبويا، وبيت شعر.

والشاهد، قول عربي لقائل موثوق بعربيته يرد للاحتجاج، والاستدلال به على قول أو رأي[٢]. وقد يحتج بالكلام العربي لغرضين: غرض لفظي يدور حوله صحة الاستعمال من جهة اللغة، والنحو، والصرف، وغرض معنوي لا عَلَاقة له باللفظ.

ولم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم، وتدوينه، وضبطه بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء من التابعين، عن الصحابة، عن الرسول(ص)؛ فهو النص العربي، الصحيح، المتواتر، المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء، والحركات، والسكنات، ولم تعتن أمة بنص ما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم، وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة، والنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وقراءاته جميعاً، الواصلة إلينا بالسند الصحيح حجة لا تضاهيها حجة[٣].

والحديث الشريف الأصلُ الثاني من أصول الاستشهاد بعد كلام الله عز وجل، وما نفهمه عند اطلاق مصطلح الحديث أنه كلام النبي العربي محمد(ص)، وكان من الواجب أن يأتي بعد القرآن الكريم في منزلة الاستشهاد به لولا أن المسلمين الأوائل أجازوا روايته بالمعنى، ولم يعتمدوا فيه على اللفظ الذي نطق به الرسول(ص)غالباً .

المصدر الثالث هو كلام العرب كما استُشْهِد به في اللغة، والنحو، ويقصد به كلام القبائل العربية الموثوق بفصاحتها، وصفاء لغتها من منثور، ومن منظوم قبل بعثته(ص) وفي زمنه، وبعده إلى أن فسدت الألسنة بدخول الأعاجم، وكثرة المولَّدين، وانتشار اللحن[٤].

لا أحـــــــد يشك في مكانة الشاهد في العلوم العربية والإسلامية؛ وذلك أنه يعد العصب لها في مرحلة التنظير، وهو المادة في مرحلة التطبيق، وعلى الرغم من تنوع الشاهد يبقى الشعر الأظهرَ؛ لكثرته في بناء قواعد اللغة، والاستدلالات، لذلك كانت العناية بالشاهد قديمة، فهناك من يشرحه، ويبينه، وهناك من يوثِّقه، وينسبه. وازدادت العناية بشواهد النحو، والصرف، واللغة؛ لأنها من أكثر شواهد علوم العربية ثباتًا لارتباطها بالقواعد التي بنيت عليها[٥].

وإذا وجدت سمة الثبات في شواهد النحو، والصرف، والمعاجم، وقضايا اللغة لأنها تتعامل مع قواعد وثوابت، فإن الشاهد البلاغي ينبغي ألا تحده حدود، لا في نوعه، ولا في زمن الاحتجاج به، ولا في طريقة تحليله، وينماز من غيره بميزات ترجع إلى الوظيفة، والمجال الذي يتحرك فيه[٦].

لم يكـــــــن للاستشهاد لدى ٱبن عقيل في شرحه لألفية ٱبن مالك ميزة تفرده عن غيره، فقد احتذى أثر النحاة فيه، فكانت شواهده موزعة على القرآن الكريم بنسبة أعلى من الحديث النبوي الشريف، وتتقارب مع الشعر العربي أسوة بالنثر، وما قاله العرب إلا أن النسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالأنواع الثلاثة، يعطف عليها القراءات القرآنية في بعض المواضع، مع لحاظ توزيع الشاهد النحوي على الأبواب النحوية كافة، أي في المرفوعات، وفي المنصوبات، وفي المجرورات، وموظَّف بسمة حجاجية، أو بسمة تعليمية، توضيحية لاسيَّما المختص بالمرأة منه أي لكسب خلاف نحوي، أو لإقرار قاعدة نحوية، وهكذا كما يتضح في مطلب الدلالات الظاهرة.

ومن جهـــــــــة أخرى يمكن تقسيم الشواهد بحسب معيار الموضوع على شواهد مختصة بالحيوان نحو: الناقة، والفرس، وأخـــــــــرى مختصة بالقيم، نحو: الكرم، والشجاعة، وأخرى مختصة بالإنسان، نحو: الرجل، والمرأة، وهكذا، ولعل هذا التقسيم لم يَدُر في خلد النحاة حينها، وهذا التقسيم يدخل في باب النقد الثقافي أي دراسة القيم التي أدت بالنحوي إلى إيراد هذا من دون ذاك من الشواهد.

وفـــــي سياق الحديث عن النقد الثقافي أحاول أن أقف على مفهومه؛ ليتسنى للقارئ الاطلاع على مفاد البحث، ومزجه مع مادة النحو العربي، فهو ((فرع من فروع النقد النصوصي، ومن ثَمَّ فهو أحد علوم اللغة، وحول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة، التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه، وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي، وما هو كذلك سواء وغير سواء. من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لهذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما هَمُّه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي. وهو إذن نوع من(علم العلل) كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب، ويكشف عن سقطات في المتن أو السند، مما يجعله ممارسة نقدية متطورة، ودقيقة صارمة. ولاشـــــــك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجاً قادراً على تشريح النصوص، واستخراج الأنساق المضمرة، ورصد حركتها))[٧].

ولو أردت توضيح التعريف، وسبكه مع مادتنا المدروسة، وبيان مدى صلاحية الرؤية أو الفكرة المطروحة في هذا البحث؛ لتتوفر القناعة التامة بما نسعى لإقراره، وإثباته، وسأشتغل على النص النحوي في شرح ٱبن عقيل، وإنه لغوي، إذ الشاهد المختص بالمرأة لغة ولا شك في ذلك، ويقوم على الذاكرة الجمعية؛ لأن شرح ٱبن عقيل بيئة تجريبية، وسأقوم بتعميم نتائجه على باقي النحويين بعيدا عن الجمالية، وجزئياتها.

ولـــــه ميزة ((أنه يعتمد أنساق النص، ويعمد عبر القراءة الجادة، إلى كَشْفِها، وجعلها قيماً ثقافية. وليس أي نص، إنما النص الذي يحتوي سياقات إنتاجية، ويقدر بالتالي على تقديم انطباع عن ثقافة هذه السياقات بصرف النظر عن درجة تعقيدها أو سهولتها))[٨].

وإذا أردت الحديث عن وظيفته نكتفي بتلخيص قول الدكتور حفناوي بعلي: إذ تتأتى الوظيفة للنقد الثقافي من كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي، ولم تكن في نقد الثقافة، أو مجرد دراستها، ورصد ظواهرها، وتجلياتها، أي الاستقبال الجماهيري، والقبول القرائي لخطاب ما، وكمثال واضح نشير إلى المتصور الواعي والعقلي، الذي يؤمن أن المرأة ليست جسداً فحسب، بل عقل ووجدان[٩].

ونشير إلى حد الأصول النسقية في ثقافتنا العربية، وهو نسق(الشخصية الشعرية) هذه الصفة التي مازلنا نتباهى بها، وننتسب إليها بحق وصدق، وهناك نسق صريح ونسق مضمر، وحينما ننظر في(ديوان العرب) حول الأنساق المضمرة، لوجدنا أن الشعر كان هو المخزن الخطر لهذه الأنساق، وهو الجرثومة المتسترة بالجماليات، التي ظلت تفعل فعلها، وتفرز نماذجها جيلاً بعد جيل ليست في الخطاب الشعري فحسب، بل في كل التجليات الثقافية بدءاً من النثر، الذي تشعرن منذ وقت مبكر، وكذا الخطاب الفكري، والسياسي، والتأليفي بما فيه النقدي،[١٠]. إذًا ما أبحثه هنا هو محاولة في رصد المضمر ليس في النص الشعري المعني بالمرأة، وإنما في استعمال النحوي له. والمحفز على ذلك أن المرأة من أهم مقولات النقد الثقافي بسبب النظر الاجتماعي الذي تحتضنه، ويحتضنها، فهي تقدم ذاتها كعطاء يأخذها الرجل، ويمتلكها تارة ، وعلى العكس من ذلك، تعطي ذاتها من أجل هدف ما تارة أخرى. إنها تحفز، تستفز، لكي تتأكد من سيطرتها، وامتلاكها للرجل. هذا هو التبادل القائم بين المرأة والرجل، وفي كل مرة يغير أحدهما وجهه.

هذه القواعد والمعطيات دفعت رواد النقد الثقافي الى تفعيل اجراءات ثقافية، تبناها الغذامي في أطروحته لدراسة النص، وقامت على النسق المضمر الذي يولد فيه[١١]، والسؤال هو هل محاولة آبن عقيل تحمل نسقا ثقافيا مضمرا؟ إذا تعاملنا مع محاولته بصورة عامة على أنها خطاب نحوي ذو مكونات، فسيكون البحث محاولة، وقراءة لسلوكه لمَّا يستعين بهذه الشواهد من دون غيرها من شواهد أُخر.

ولا بد من التذكير بأن النظرة الثقافية إزاء المرأة أملت عليه بوصفه نحويًا انطباعًا معينًا وهذا يتناسب مع ما يطرحه الغذامي بقوله: ((وبواسطة هذا الانضباط سنرى أن في كل ما نقرأ، وما ننتج، وما نستهلك هناك مؤلِّفَين اثنين، أحدهما المؤلف المعهود، مهمَا تعددت أصنافه كالمؤلف الضمني، والنموذجي، والفعلي، والآخر هو الثقافة ذاتها، أو ما أرى تسميته هنا بالمؤلف المضمر...هذا المؤلف المضمر هو الثقافة، بمعنى أن المؤلف المعهود هو ناتج ثقافي، مصبوغ بصبغة الثقافة))[١٢]. ولم تعنِ الثقافة عند الغذامي المعنى المعهود لها، فلا هي أنماط السلوك المحسوسة، ولا هي مما يرتبط بالموروث المجتمعي من عادات وتقاليد، بل هي مرتبطة بموضوع الهيمنة بحسب طرح قيرتز، من خطط، وقوانين، وتعليمات، مهمتها التحكم بالسلوك[١٣].

وبالنتيجة سيكون البحث سؤالا مفاده هل في النحو شيء غير النحوية؟ ليكون الجواب في تفاصيله، بأن ثمة أشياء اجتماعية، وثقافية، توجد في النحو العربي هيمنت على عقلية النحوي، ودفعته لاختيار هذا الشاهد من دون غيره، لكونه انماز بحديثه عن المرأة، وعن مفاتنها، وعما يتعلق بها.

المبحث الأول : أجناس النساء

بما أنَّ البحث مختص بالمرأة وبالشواهد التي عنتها، فضَّلتُ أن أعمل تصنيفا للنساء الواردة في الأبيات، يقوم هذا التصنيف على الأجناس، ولبعض الأجناس أنواع؛ ليتهيئ ذهن القارئ إلى تقبُّل تلك الدلالات الكامنة وراء هذه

الأنواع. وأُلفت ذهن القارئ أني أعطي للشاهد رقمه الذي ورد به في شرح آبن عقيل، للحفاظ على جمالية الحواشي وقلَّتها، وليسهل على القراء المراجعة إليها لاسيَّما إذا تذكرنا كثرة طبعات هذا الشرح.

وبحسب الملاحظة تبين أنَّ الشواهد المختصة بالمرأة جاءت على أربعة أجناس، الجنس الأول المرأة المفردة. والجنس الثاني مجموعة النساء ذوات الوصف نحو: الغواني، والغانيات. والجنس الثالث المرأة العامة. والجنس الرابع المرأة الخاصة المصرَّح باسمها.

جاء الجنس الأول بسبعة أنواع، النوع الأول هي الأم بخمسة شواهد، منها قوله:

[١١١] هَذَا لَعَمْرُكمُ الصَّغَارُ بِعَيْنِهِ لا أُمَّ لي إِنْ كَانَ ذَاكَ وَلاَ أَبُ

ويرد ذكر الأم بقول الشاعر:

[٥٠] إلى مَلِكٍ ما أمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أبُوهُ، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

وقد يكون الحديث عن الأم في هذين البيتين[١٤] بصورة عامة، مع التصريح بلفظة أم، لكن هناك نمطا لم يصرح بكلمة أم ، وإنما باستعمال (أنا آبن) في البيت الآتي:

[١٩١] أَنَا آبنُ دارةَ مَعْرُوفًا بها نَسبي وهَلْ بَدارَةَ يا لَلنَّاسِ مِنْ عَارِ؟

والنوع الثاني الزوجة، ويمكن تنميطها على نمطين الأول: الصريح، والآخر الرمزي. الصريح ذكر فيه آسم الزوجة (لَكَاع)، وهذا هو البيت الوحيد في هذا النمط في قوله:

[٢٥]. أُطَوِّفُ ما أُطوِّفُ ثُمَّ آوِى إلى بيْتٍ قعِيدَتُهُ لَكَاعِ

والنمط الآخر هو الرمزي، ويعني ما رمز الشاعر فيه إلى المرأة، ويفك الرمز بالاستعانة بالسياق، أو شفرة تنتمي إلى المخاطب أو الغائب أو الكناية. فمما يفك بالسياق قوله:

[٩٨]. لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ ٱلْقَصِيِّ مِنِّي ذِي الْقَاذُورَةِ المقلِيِّ
أو تحْلِفِي بربِّكِ ٱلْعَلِيِّ أَنِّي أَبُو ذيَّالِكِ الصَّبِيِّ

ومما يفك بشفرة ضمير الخطاب الكاف في موضوع إن وأخواتها[١٥]، فالشاهد قوله:

[١٠٥]. فَلَوْ أَنَّكِ في يَوْمِ الرَّخَاءِ سألْتِنِي طَلاَقَكِ لَمْ أبْخَلْ وأَنْتِ صَدِيقُ

ومنه أيضا ضمير الغائب في قوله:

[١٣٦]. قَالَتْ وكنتُ رجُلًا فَطِينَا هذا لَعَمْرُ اللهِ إِسْرَائِينَا

والنمط الذي يفك بشفرة الكناية إذ كنى المرأة بعرسي[١٦]:

[٢٧٤]. تقولُ عِرْسِي وَهيَ لي في عَوْمَرَهْ: بئْسَ امْرأً، وإِنَّني بئْس الْمَرَهْ

هنا قصد الشاعر بكلمة(عِرسي) زوجته.

والنوع الثالث من المرأة المذكورة الحبيبة بأربعةَ عشرَ شاهدا بثلاثة أنماط. الأول: الإشارة إليها بضمير، ومنها :

[١٢]. تنوّرْتُها من أذرعاتٍ وأهلُها بيثرِبَ أدنى دارِهَا نظرٌ عَالِي

وفي نمط آخر ذكر وصف الحبيبة، ومنه:

[٣٥]. وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْراءَ حِقْبَةً فبُحْ لاَنَ مِنْها بالَّذِي أَنْتَ بائحُ

وفي النمط الثالث ذكر اسمها في خمسة أبيات ومنها قوله:

[٩٩]. يَلُومُونَنِي في حُبِّ لَيْلى عَوَاذِلِي وَلَكنَّنِي مِن حُبِّها لَعَميدُ

والنوع الرابع البنت، وجاء بنمطين، انبثق النمط الأول بصيغة الجمع في قوله:

[٥١]. بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا، وَبنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجالِ الأَبَاعِدِ

وانبثق النمط الثاني بصيغة المفرد في قوله:

[١٨٩]. تَقُولُ ابْنَتِي: إِن انْطَلاقَكَ وَاحدًا إِلى الرَّوْعِ يَوْمًا تَارِكِي لا أَبَالِيَا

والنوع الخامس العمة، والخالة، وذُكِرَا في الشاهد الآتي.

[٤٨]. كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٌ فَدْعَاءُ قَدْ حَلَبَتْ عَليَّ عِشَارِي

والنوع السادس الجارية الواردة في الشاهد الآتي:

[٢٠٦]. جَارِيَةٌ لَمْ تَأْكُلِ الْمُرَقَّقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقَا

ومن آخر الأنواع الجارَة ، في الشاهد الآتي.

[١٩٣]. *يا جَارةً ما أَنتِ جارَهْ*

والجنس الثاني مجموعة نساء موصوفة بستة أبيات، وصف بعضهن بالغَواني في قوله:

[١٢١]. دَعَاني الغَوَاني عمَّهُنَّ، وخِلتُنِي ليَ ٱسمٌ؛ فَلا أُدْعَى به وهوَ أوَّلُ

وفي خطاب المرأة اقتصر الأمر على ذكر أوصاف النساء بصورة عامة؛ ذلك بأنهن بطيئات السير كُسالى. في قوله:

[٢٨٣]. ولا عَيْبَ فيها غيرَ أنَّ سريعَها قَطُوفٌ، وأنْ لا شيْء منهُنَّ أكسلُ

الجنس الثالث: المرأة بصورة عامة: أي التي لم يصرح باسمها، أو لم يعطها صفة، وقد ذُكرت في الشواهد الآتية:

[١]- أَقِلِّي اللَّومَ عاذِلَ والعِتَابَنْ وقُولِي إنْ أصبتِ: لقَدْ أَصَابَنْ

أدخل تنوين الترنم على القوافي المطلقة في(العتابن-أصابن)[١٧]. وفي قوله:

[١١]. أعْرِفُ منها الجِيدَ والعَينَانَا ومَنْخِرَيْنِ أشبهَا ظَبيَانَا

الجنس الرابع المرأة الخاصة المصرح باسمها: نحو سلمى، ومطر، ذكرتْ الأولى في قوله:

[١١٤]- ألاَ اصطِبَار لِسلْمى أَمْ لهَا جَلَدٌ؟ إذا أُلاقِي الذي لاقَاهُ أمْثَالي

وذكرت الثانية في قوله:

[٣٠٧]. سلامُ اللهِ يا مَطَرٌ علَيْهَا ولَيْسَ علَيْكَ يا مطَرُ السَّلَامُ

يتضح مما سبق أنه ورد ذكر العمة والخالة، والجارة، والبنت، والزوجة، والأم، بنسبة قليلة قياسا بما ذكر من الحبيبة، وهذا يفسر الميل الفطري لدى العربي نحو المرأة، وتحكُم الثقافة المضمرة في صناعة الاختيار لهذه الشواهد من دون غيرها من قِبَل النحوي ٱبن عقيل ميدان البحث.

المبحث الثاني: النسق الظاهر للاستشهاد بالمرأة

تتحكم في النقد الثقافي ثنائية الظاهر والمضمر، ويقوم عليها بصورة كبيرة، سيكون طابع هذا المبحث إحصاء الدلالات الظاهرة وراء إيراد هذه الأبيات الشعرية التي تناولت المرأة، وما زال موضوعها النحو، فهي دلالات نحوية تنضوي في مقولة النسق الظاهر وراء إيرادها وهي على وفق الآتي:

١. لإثبات قاعدة نحوية: والإثبات بخلاف النفي. أما القاعدة فهي القانون[١٨]، أي إثبات قانون نحوي يعمل به النحاة، والدارسون، ومن ذلك حذف العائد على الموصول؛ إذ يستساغ حذفه لأنَّه مجرور بمثل الحرف الذي جر الموصول (الباء)، والأصلُ (بالذي أنت بائح به) في قول الشاعر[١٩]

[٣٥] وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حِقْبَةً فبُحْ لاَنَ مِنْها بالَّذِي أَنْتَ بائحُ

ومنه مسوغات الابتداء بالنكرة في قوله:

[٤٨] كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٌ فَدْعَاءُ قَدْ حَلَبَتْ عَليَّ عِشَارِي

القاعدة في(عمةٌ)، وقعت مبتدأ على الرغم من أنها نكرة؛ لأنها وقعت بعد(كم) الخبرية لذلك، فهذه قاعدة لا تتغير[٢٠].

٢- لإثبات الاشتراط في العامل النحوي: فقد اشترط في عمل (زال) بأنْ ترفع الاسم وتنصب الخبر أن يسبقها نفي، أو شبه نفي، وأورد النحاة على ذلك الاشتراط أمثلة، ومنها سبقها بشبه النفي وهو الدعاء (لا) الدعائية[٢١] في قوله:

[٦٢] ألا يا ٱسْلَمِي، يا دارَ مَيَّ، عَلَى الْبِلَى، ولا زال مُنهَلًّا بجَرْعائِكَ القَطْرُ

٣- لإثبـــــــــــــــات الشاذ النحوي. الشاذ هو الذي يكون على خلاف القياس من غير نظر إلى قلة وجوده، وكثرته، ويأتي على ثلاثة أقسام. قسم مخالف للقياس دون الاستعمال، وقسم مخالف للاستعمال دون القياس، وكلاهما مقبول، وقسم مخالف للقياس والاستعمال، وهو مردود، فالشاذ على هذا بمعنى المخالف مطلقًا[٢٢]. ومنه زيادة اللام في خبر المبتدأ (عجوز) في قوله[٢٣].

[١٠١]. أمُّ الحُلَيسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبهْ تَرْضَى من اللَّحْمِ بعظمِ الرَّقَبَة

٤-لإثبات النادر النحوي: ((النادر هو ما قل وجوده سواء كان مخالفًا للقياس أو موافقًا له))[٢٤]. من ذلك مجيء النادر على وزن تفعيل معتل اللام، والقياس الأصل على وزن (تفعلة)، فهذا نادر أن يأتي المعتل على وزن تفعيل في (تنزيا) [٢٥] فجاء بالشاهد:

[٢٦٦]. باتَتْ تُنَزِّى دَلْوَها تَنزيًّا كما تُنَزِّى شَهلةٌ صَبِيًّا

٥-لإثبات الضعيف النحوي: الضعيف ضد القوي، وفي العرف ما يكون في ثبوته شك[٢٦]، ومنه العطف على الضمير المستتر من دون فاصل بينهما في قوله:

[٢٩٧]. قُلتُ إذ أقبَلَتْ وزُهرٌ تَهادَى كنِعاج الفَلا تَعَسَّفنَ رَمْلا

إذ الضعف في (وزهرٌ) عطفه على الضمير المستتر في الفعل (أقبلت) من غير أن يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالضمير المنفصل أو غيره وهذا ضعيف[٢٧].

٦- لإثبات الضرورة النحوية: الضرورة في اللغة الحاجة[٢٨]، كما في تنوين صيغة منتهى الجموع، وصرفها (ظعائن) للضرورة في قوله[٢٩]:

[٣٢٠]- * تبصَّر خليلي هل ترى من ظعائنٍ*

٧-لإثبات الصحيح من مذاهب النحويين: الصحيح ضد الفاسد، والمريض. والصحيح غير المعتل أي أن لامه لم تكن حرف علة[٣٠]. والمراد هنا أن النحاة يذكرون آراء عدة في مسألة نحوية، ثم يرجحون الصحيح منها في نظر أحدهم، فيأتون بالشاهد لما يذهبون، ومن ضمن هذه القواعد حذف أحد مفعولي ظن وأخواتها، وهناك جواز بحذف الاثنين معًا عند توافر الدليل، وقد أكد ٱبن عقيل ما ذهب إليه المصنف ٱبن مالك ت٦٧٢هـ باشتراط الدليل، وساق شاهدا:

[١٣٣]. ولقَد نزلتِ فلا تَظُنِّي غيرَهُ منِّي بمنزِلَة المُحَبِّ المُكْرَمِ

المفعول الأول (غيره) والمفعول الثاني محذوف هو (واقعًا) والتقدير (فلا تظني غيرهُ واقعًا)[٣١].

٨. لإثبات القليل النحوي: أي هناك بعض الاستعمالات النحوية تأتي بصورة قليلة، وليست كثيرة، ومن ذلك بروز ٱسم (أنْ) المفتوحة الهمزة المخففة، فإذا خففت (أن) المفتوحة الهمزة، يكون اسمها ضمير الشأن محذوفا، وخبرها يكون جملة، وقد يبرز اسمها وإن خففت، وهذا قليل، ومنه قول الشاعر[٣٢].

[١٠٥]. فَلَوْ أَنَّكِ في يَوْمِ الرَّخَاءِ سألْتِنِي طَلاَقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وأَنْتِ صَدِيقُ

٩. لتعريف المصطلح النحوي: أي يثبت تعريف المصطلح النحوي، وتبيانه بالشاهد النحوي، ومن ذلك تنوين الترنُّم، الذي يلحق القوافي المُطْلَقة بحرف علة، فيكون مجيئه بدلًا من الألف المطلقة، والشاهد الذي يوضح ذلك قول الشاعر[٣٣]:

[١] أَقِلِّي اللَّوْمَ عاذِلَ والعِتَابَنْ وقُولِي إنْ أصبتُ: لقد أصابَن

١٠. لإثبات لغة عند بعض العرب: ومن ذلك ورود الأسماء الخمسة بالألف رفعًا، ونصبًا، وجرًا، فهذه لغة، وشاهدها[٣٤]:

[٦] إن أباها وأبا أباها قد بلَغا في المجدِ غايتاها

فهنا (أباها) الثالثة في موضوع الجر بإضافة ما قبلها إليها، ومع ذلك جاء بها بالألف؛ لأنها تأتي به رفعًا، ونصبًا، و جرًّا.

١١. لإثبات الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين: هناك خلاف بين البصريين والكوفيين في تقديم الخبر على المبتدأ، فالخبر لا يجوز تقديمه على المبتدأ؛ لأنه وصف في معناه للمبتدأ لكنه يجوز تقديمه إذا لم يحصل لبس في الجملة، ومنع الكوفيون ذلك، وقالوا بعدم جوازه بدليل قوله:

[٥٠]. إلى مِلكٍ ما أمُّهُ من مُحارِبٍ أبوهُ ، ولا كانتْ كليبٌ تصاهِرُهْ

فهنا قدم الخبر وهو جملة ما ومعموليها (ما أمه من محارب) خبر المبتدأ. (أبوه)[٣٥].

١٢- لإثبات المذهب النحوي: للتنويه أن هذه الدلالة لا تتعارض مع الدلالة رقم (١١) المتعلقة بإثبات الخلاف النحوي، إذ يرى المذهب الكوفي دخول لام الابتداء في خبر (لكن)، وهي بطبيعتها لا تدخل إلا على خبر (ان) المكسورة الهمزة، وجاءوا بقول الشاعر شاهدا على ما يرون[٣٦]:

[٩٩] يَلُومُونَنِي في حُبِّ لَيْلى عَوَاذِلِي وَلَكنَّنِي مِن حُبِّها لَعَميدُ

وقد يدخل هذا المذهب في باب الجواز النحوي، فيؤتى بالشاهد لإثبات الجائز: أي إثبات ما يجوز في بعض القواعد، من ذلك ما يجوز في تقديم معمول خبر (ان) على اسمها، وهو لا يجوز تقديمه إذا كان غير الظرف أو المجرور، ولكن أجاز بعضهم تقديم المجرور ومن ذلك:

[٩٥] فلَا تَلْحَنِي فيها: فإنَّ بحُبِّها أخاكَ مُصَابُ القَلبِ جَمٌّ بلابلُهْ

فهنـــــــا تقدم معمول خبر (ان) وهو الجار والمجرور (بحبها) على اسمها (أخاك)، وخبرها (مصاب القلب)، والأصل (إن أخاك مصاب القلب بحبها)، وهنا تقدم المعمول لإثبات ما يجوز[٣٧].

١٣- لإثبات الأوجه النحوية في القاعدة : أي أن القاعدة النحوية فيها أوجه مختلفة، من ذلك إذا بني آسم (لا) النافية للجنس على الفتح، يجوز في الاسم الذي بعدها ثلاثة أوجه، ومن ضمن هذه الثلاثة وجهُ الرفع، والرفع فيه ثلاث أوجه من ذلك:

[١١١]. هذا لَعَمْرُكُم الصَّغَارُ بِعَينِهِ لا أُمَّ لي إنْ كانَ ذاكَ ولا أبُ

فهنا (أبُ) مرفوع على ثلاثة أوجه إما معطوفة على محل (لا) واسمها؛ لأنه في موضوع رفع بالابتداء أو أن تكون (لا) الثانية عاملة عمل ليس، أو أن يكون مرفوع بالابتداء[٣٨].

١٤- لإثبات المعنى في اللغة: أي أن الشاهد يأتي توثيقا دلاليا لبيان المعنى المعجمي لبعض المفردات النحوية مثل مفردة الترخيم التي تدل على ترقيق الصوت[٣٩] كما في قوله:

[٣١٥]. لها بَشَرٌ مثلُ الحريرِ ومَنطِقٌ رخِيمُ الحوَاشِي لا هُرَاءٌ ولا نَزْرُ

١٥- لإثبات ما سمع: والسماع : أحد المصادر التي اعتمدها العلماء في جمع اللغة، ورصد حقائقها، ويعني تلقي اللغة من أهلها[٤٠]، ومن القواعد النحوية المسموعة قاعدة تنوين المنادى المفرد العلم، وإبقاء الضمة، واستشهدوا بالسماع على هذه القاعدة بقوله:

[٣٠٧]. سلامُ اللهِ يا مَطَرٌ علَيْهَا ولَيْسَ علَيْكَ يا مطَرُ السَّلَامُ

(يا مطر) الأولى نونت وهو مفرد علم، وأبقى الضمة للضرورة، وهو مسموع[٤١].

١٦- لإثبات آراء النحويين: أي أن هناك قواعد نحوية فيها آراء لبعض النحويين، من ذلك أنه لا يجوز تقديم التمييز على عامله سواء أكان متصرفًا أم غير متصرف هذا مذهب سيبويه، ولكن المازني ت ٢٤٩هـ ، والمبرد ت٢٨٥هـ، والكسائي ت٢٨٩هـ أجازوا تقديمه على عامله المتصرف.

[١٩٤]. أتهجُرُ لَيلَى بالفراقِ حَبيبَهَا ؟ ومَا كانَ نَفْسًا بالفِراقِ تَطيبُ

فهنا (نفسا) تمييز وعامله (تطيب) قد تقدم عليه، والأصل (تطيب نفسا)، فهنا اختلاف آراء النحويين بيجوز ولا يجوز[٤٢].

١٧- لإثبات الاستعمال النحوي: أي أن هناك قواعد نحوية جاء فيها الاستعمال النحوي، وبتعبير آخر العدول النحوي المنضبط بالسياق، من ذلك ما جاء في استعمال (خال) بمعنى فعل اليقين في:

[١٢١]. دَعَاني الغَوَاني عمَّهُنَّ، وخِلتُنِي ليَ ٱسمٌ؛ فَلا أُدْعَى به وهوَ أوَّلُ

فاستعمل (خال) بمعنى فعل اليقين، ونصب به مفعولين الأول ضمير المتكلم الياء في (خلتني) والثاني جملة (لي ٱسم) من المبتدأ والخبر[٤٣].

ويظهـــــــــــــــر أن الشواهد النحوية الخاصة بالمرأة توزعت في شرح ٱبن عقيل على موضوعات متنوعة، ولم تقتصر على موضوع دون آخر، منها المبتدأ والخبر، والحال، والاسم الموصول، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها، ونعم وبئس، والممنوع من الصرف، وحروف الجر، والتمييز، ولا النافية للجنس، والتعجب، وأفعل التفضيل، وعلامات الاسم، والمثنى، والنداء، وغيرها.

المبحث الثالث: النسق المضمر للاستشهاد بالمرأة

في المبحث السابق قُرِأ وجود المرأة قراءة تقليدية أُبرِز من خلالها الدلالات الظاهرة للشواهد الشعرية التي اختصت بالمرأة، وسأحاول في هذا المبحث إجلاء القراءة المضمرة للشاهد، أي تصوير الثقافة المضمرة المتعلقة بالمرأة من جهة أنها حرَّكت النحوي للجوء إلى استعمال هذا الشاهد من دون غيره لإرساء نصوص تعليمية. وأشير إلى أن القراءة في هذا المبحث تحديدا تعتمد التأويلَ بالدرجة الأساس . وسيكون بحثنا معنيا بالتفتيش عن الدلالة النسقية للخطاب النحوي ((فإن الدلالة النسقية ليست من صنع مؤلف فرد ، لكنها منكتبة في الخطاب لفعل سيطرة نموذج ثقافي شامل يقوم بفتح محاولاته في ثنايا الخطاب))[٤٤].

والنسق المضمر ((نسق ثقافي لم يكتبه كاتب فرد ، ولكنه انوجد عبر عمليات من التراكم، والتواتر حتى صار عنصرًا نسقيًا يتلبس بالخطاب، ورعية الخطاب من مؤلفين وقُرَّاء))[٤٥].

والبحث هنا يأتي على شكل جواب لسؤال مفاده هل أن لجوء النحويين إلى هذه الشواهد يخبئ لنا سلوكًا آخر غير السلوك النحوي؟ لعله يكون من المنحى الاجتماعي أقرب منه إلى النحو، والغوص في هذه الظاهرة يشكِّل اكتشافًا لما رسخ في ذاكرة العربي النحوي، وما الأسباب التي ألجأته إلى هذا الشاهد من دون غيره؟

ويجـــــــب الإيماءة إلى أن إسقاط مقولات النقد الثقافي على الظاهرة النحوية لا يعني الانطلاق من الجماليات التي عُبِر من ورائها ثقافة المجتمع النحوي، بل نقصد بها الانطلاق من السلوك المضمر وإنْ كان

النحوي ليس بشاعر، وليس بالضرورة من هذه المحاولة اكتشاف العيوب لدى النحويين، بل نريد اكتشاف الأنساق المضمرة بأنواعها سواء أكانت محامد أم عيوبًا! وليس قصدنا إسقاط قيمة النحو، والنحوي آبن عقيل _بوصفه ميدانا للبحث_ وعلى هذا يكون البحث في صلب الخطاب وليس في النص. وهذا اكتشاف للمهيمن الثقافي على النحوي العربي، وبيان قسرية ذلك المهيمن الذي لا سيطرة للفرد عليه لاسيَّما وأن أمر الخيار والمتسلط من أهم أطروحات النقد الثقافي(٤٦). وسأسجل بعضًا من تلك الدلالات تاركًا الباب مفتوحًا لإكمالها لمن يرغب. ويمكن تقسيم حضور الدلالة النسقية للمرأة في الشواهد على صورتين، تكون الأولى الصورة الإيجابية لها، القائمة على تحسين صورتها، والتفاخر بها، واحترامها، وتكون الصورة الأخرى سلبية، تقوم على النظر الشهواني، والجنسي لها. ومن دلالات الصورة الأولى:

١- التعلق بالمرأة، والميل إليها ثقافة فطرية لدى الرجل، وتزايد هذا الميل حتى أصبحت مقدسة لدى العربي، فتراه – أي النحوي– يلجأ إلى الشعر الخاص بالحبيبة، ومن هذه الشواهد .

[٢٩] بَكَيْتُ على سِرْبِ القَطَا إذ مَرَرْنَ بي فقُلْتُ وَمِثْلِي بالبُكاءِ جَدِيرُ

أسِربَ القَطَا، هل مَن يُعِير جَنَاحه لعَلِّي إلى مَن قد هَوِيتُ أطيرُ؟

واستمر آبن عقيل بإيراد الأبيات ذات الحضور الأنثوي، والدالة التعمق بحب المرأة كما يفصح نص الشاعر:

[٩٥]. فلَا تَلْحَنِي فيها: فإنَّ بحُبِّها أخاكَ مُصَابُ القَلبِ جَمٌّ بلابلُهْ

وقد هالته مكانة المرأة في المجتمع العربي، حتى وصل الأمر بالاستفحال لدى الذكور أن يسموا بعض الأيام بأسمائهن، ومن ذلك (يوم حليمة) وصار يوما مشهورا، وحدثت فيه حرب طاحنة بين لخم وغسان، فلكي يكون التعلق بهذا البيت وبقاعدة معنى من الجارة لابتداء الغاية ذهب النحوي إلى المثل المشهور يوم حليمة الذي لا يعرف الكتمان والسر.

[٢٠٥] تُخَيِّرْنَ مِن أزمَانِ يومِ حَلِيمَةٍ إلى اليومِ قَد جُرِّبْنَ كلَّ التَّجَارِبِ

النسق المضمر هنا تعلق النحوي بالنساء، وميله إليها مما جعله يختار الأبيات ذات منحى الحب، والهوى، التي تبين شدة الشوق والهُيام بها. وراح يختار بيتًا آخر يصف نعومة جلدها وأظفارها، وحديثها، وعذوبته، ورقته.

[٣١٥] لهَا بَشَرٌ مِثْلَ الحَرِيرِ ومَنْطِقٌ رَخِيمُ الحَوَاشِي لا هُرَاء ولا نَزْرُ

ولم يقف الى هنا التعلق بالمرأة والاعتزاز بها، بل وصل إلى الدعاء لدارها إذا كانت حبيبة، وتمنيه دوام السلامة لها على مر الأزمان ، ويتمنى أن يدوم نزول المطر بساحتها، وهنا المطر كناية عن الخصب والنماء، حينما يتوفر لا يكون داعيا على رحيل أهل محبوبته(٤٧) في قوله:

[٦٢]. ألا يا آسْلَمِي، يا دارَ مَيَّ، عَلَى الْبِلَى، ولا زال مُنهَلًّا بجَرْعائِكَ القَطْرُ

٢- بيان قدسية(الأم). لقد مرت بنا قدسية المرأة الحبيبة، وهنا ينتقل الحديث عن تقديس المرأة (الأم)، وبيان أثرها في تربية الابن لاسيما في مدح الفرزدق للوليد بن عبد الملك مبينا أصله المحترم من جهة الأم والأب، في قوله(٤٨):

[٥٠]. إلى مَلِكٍ ما أمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أبُوهُ، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

ويلجأ ٱبن عقيل إلى المرأة الأم المقسم بها، إذ إنه لم يعمل المشين، أو الذل، أو المهانة، فإن فعله فلا أم له ولا أب[٤٩] في قوله:

[١١١]. هَذَا لَعَمْرُكمُ الصَّغَارُ بِعَيْنِهِ لا أُمَّ لي إِنْ كَانَ ذَاكَ وَلاَ أَبُ

إلى أن يصل احترام المرأة والإشفاق عليها، فقد يذكر بخشية واشفاق بكاء أم عمرو على ولدها، فيقدس المرأة ولا سيَّما(الأم) من حيث لا يشعر، أي أنه ذكرها في شاهده بصورة عفوية[٥٠].

[٢٦٩]–أرَى أمَّ عَمْرٍو دَمْعُها قَدْ تَحَدّرَا بُكَاءً على عَمْرٍو، وما كَان أصْبَرَا!

٣– بيان الفخر بالأم؛ لأن من عادة العرب الفخر بنسب نسائهم[٥١] في الشاهد الآتي.

[١٩١]. أَنَا ٱبنُ دارةَ مَعْرُوفًا بها نَسبي وهَلْ بَدارَةَ يا لَلنَّاسِ مِنْ عَارِ؟

ووردت الصورة الأخرى (السلبية) بدلالات ومنها:

١– بيان العنف الذكوري تجاه المرأة وذكر ردائتها، وهذا يعني أن النحوي لجأ إلى الأبيات التي تشوِّه صورة المرأة، والتي تحطُّ من قيمتها، وتبين أنها ليست ممن وظف نفسه للرجل، أو ممن أنها لم تتعرف على معالم الحضارة والرفاه، أو تسجيل الأبيات التي تبين عدم رضاه عن ترهل جسدها، ومنه في الشواهد الآتية

[٢٥] . أُطَوِّفُ ما أُطوِّفُ ثُمَّ آوِي إلى بيْتٍ قعِيدَتُهُ لَكَاعِ

فالنسق المضمر يتجلى ببيان رداءة امرأته أنها امرأة شديدة الخبث متناهية في الدناءة، واللؤم، حتى بلغ بها الأمر أنه يأتي إلى البيت بعد دوران، وارتياد للأماكن في عامة النهار ليطلب الرزق، ويحصل القوت، فلا تقع عينه فيه إلا على امرأة نكدية.

[٢٠٦]. جَارِيَةٌ لَمْ تَأْكُلِ الْمُرَقَّقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقَا

وينتقل ذم المرأة إلى كشف عيوب الجارية البدوية بأنها لم تأكل الرغيف الرقيق الواسع، وهذا النوع يكثر لدى البدو، ولم تذق ما يترفَّه به أهل الحضر وهو الفُستُق[٥٢]. ثم يختار النحوي ٱبن عقيل شاهدا آخر ذُمَّت فيه المرأة السمينة:

[٢٨٣]. ولا عَيْبَ فيها غيرَ أنَّ سريعَها قَطُوفٌ، وأنْ لا شيْء منهُنَّ أكسلُ

وهنا يتبين رداءة النساء، فهو يصفهن بالسمن وإنهن بطيئات في السير حتى أن سريعهن شديدة البطأ، متكاسلة وهذا يسمى (تأكيد المدح بما يشبه الذم) ، ولا أحد ينكر سلبية هذه الممارسة تجاه المرأة.

٢– إظهار نسق الفحولة: اختص نسق الفحولة على إظهار رجولة الرجل في النص الأدبي، وقد كثر في الشعر بنسق مضمر وليس صريحا، ونسق الفحولة يقصد به بيان الرجولة، وقيمتها، وأفعالها التي تنماز بها أمام أفعال النسوة، أي المغامرات التي انماز بها إذ أعجبت به بعض النساء من الحوامل والمرضعات، وهذه الفحولة رددها أو كررها النحوي، أي لجأ إلى تلك النصوص عند الاشتغال النحوي كما جاء في الشاهد الآتي عند تبيان القدرة الجنسية للرجل، وكثرة ممارساته حتى وصل الأمر إلى طَرْق المرضع، والحامل من النساء:

[٢١٨] فمثلِكِ حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائمَ مَحول

وهناك نمط آخر من أنماط الفحولة، وهو عدم المبالاة للمرأة، وتجاهلها؛ بحجة عدم تعقلها، وعدم حلمها:

[٣٠٢]. ذَرِينِي أنَّ أمرَكِ لَنْ يُطَاعَا وَمَا أَلفَيتِنِي حِلْمِي مُضَاعَا

عندما تخاطبه عاذلته على اتلاف ماله، فهو يقول لها لا تتحدثي، فإني لا أطيع أمرك فالحلم، والعقل يأمراننني اتلافه في اكتساب الحمد ولا ضياع في ذلك[٥٣]. ولما يجد الناص انعدام الفحولة والكفاءة لدى رجل تجاه امرأة ما لاسيما وأنها تعلقت بكفء غيره أي غير الزوج يضطر الناص أن يدعوه بطلاقها، والتخلي عنها في قوله:

[٣٤٥] فطَلَقْهَا فلستَ لها بِكُفءٍ وإلا يعلُ مفرقك الحِسَامُ

٣- اعتزاز الرجل/ النحوي بثقافة الجسد، والنظر إلى المرأة نظره جسدية، من خلال إبراز محاسنها ومفاتنها، من جهة العين، والصدر، والجِيد.ومنه:

[١١]. أعْرِفُ منها الجِيدَ والعَينَانَا ومَنْخِرَيْنِ أشبهَا ظَبيَانَا

اعتزاز النحوي بثقافته الجسد واللجوء إلى ما مصور فيه المفاتن لشد المتلقي النحوي لفهم المادة، وممارسة نوع من التلذذ[٥٤]، فذكر جيدها، وعيونها، وأنفها، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل ذكر صدرها، ووصفه كأنه العظم العاج والقوي غير الملموس وغير المدنس[٥٥] كما في قوله:

[١٠٨]. وصَدْرٍ مُشْرِقِ النَّحْرِ كـــــأَنْ ثديَيْهِ حُقَّانِ

ويتكرر ملمح الصدر مرة أخرى في شرح ٱبن عقيل بقوله:

[٣٠٨] ضَرَبَت صَدْرَها إليَّ، وقالتْ: ياعدِيًّا لَقَدْ وَقَتْكَ الأواقِي

٤- استصغار المرأة، وبيان صغر عقلها، وطمعها، وتعلقها بالمادة، وذب اللوم عليها ليس طعنا بظهرها وإنما من خلال الحوار، ومحاولة الظهور بطور التهدئة، وعدم الانفعال على هدر المال في محاسن الكرم، ويوجهها بعد الندم على ذلك، بل الندم يكون وقت موته، فظهر الشاعر/الرجل بصورة الباذخ للمال، والكريم بطبعه في سياق المقابلة مع صورة العاذلة، التي يقلقها كرمه، ونبله، وها هي تظهر بصورة السفيهة المتعجلة في قوله:

[١٥٧]. لا تَجْزَعِي إنْ مُنفِسٌ أهْلَكْتُهُ فإذا هَلَكْتُ فعِنْدَ ذلك فاجْزَعِي

الخاتمة

تمت إمكانيـــــــــــــــة تقسيم الشواهد النحوية الشعرية تقسيما جديدا على أساس معيار الموضوع أو الحقول الدلالية مثل شواهد مختصة بالحيوان، نحو: الناقة، والفرس، وهكذا...، وشواهد مختصة بالقيم، نحو شواهد الكرم، والشجاعة، وشواهد مختصة بالإنسان، نحو شواهد الرجل، والمرأة.

وتُذْكَر المرأة بوصفها شاهدا شعريا في موضوعات النحو جميعها، بأربعة أجناس، وعلى أنواع سواء أكانت المرأة الأم، أم الزوجة، أم الحبيبة، أم العمة، أم الخالة، أم الجارة، أم البنت.

ولاشك أن السلوك النحوي جزء من ذاكرة اجتماعية، وبيئة ثقافية متفاوتة بالنظر إلى المرأة سلبا وإيجابا، فإذا اقتضى مدحها، والتودد إليها، والانتفاع منها روحا، وجسدا فُعل، أو اقتضى ذمها، وقدحها أيضا فُعِل. ويتم الوقوف على أن هناك دلالات صريحة يستشهد بها النحوي منها اثبات قاعدة نحوية، أو لرفد الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، وغيرها من الدلالات التي ذكرت في المبحث الثاني.

ويعطـــــــــف على ذلك قول مفاده أن هناك واقعا خفيا قَبْل النحو، يحرك النحاة، هو الميل إلى المرأة والاعتزاز بها؛ لأنها تمثل المقدَّس الواضح لدى الرجل العربي بنوعيه الصحراوي، والمدني؛ لذا كانت محركًا خفيًا يدفع بالنحوي إلى اللجوء إلى هذه الأبيات بوصفها شاهدًا شعريًا.

يتـــــــآزر معه الاستخفاف بها وعدم احترامها في العقل الجمعي العربي، وهنا نخرج بنتيجة معروفة تقريبا تمثل أن الثقافة الاجتماعية محرك ومؤلف مضمر يدفع النحوي إلى اختيار هذه الأبيات من دون غيرها، بفعل النظرة للمرأة، سواء أكانت نظرة جسدية، أم نظرة حب لها بوصفها حبيبة، أو زوجة، أو أُما.

وعليـــــه يمكن الزعم بأن أطروحة النقد الثقافي إن كان أطروحة، أو نظرية النقد الثقافي إطار يمكن تطبيقه على الاختيار النحوي للشواهد الشعرية المختصة بالمرأة من دون الرجل، وهناك إمكانية الفحص التأويلي للأنواع الأخر، أي شواهد الرجال ، وشواهد الحرب، وغيرها.

المصادر

١-جماليات النقد الثقافي (نحو رؤية للأنساق الثقافيّة في الشعر الأندلسيّ)، تأليف أحمد جمال المرازيق، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس، ط ١، ٢٠٠٩م.

٢- دستور العلماء(جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)، تأليف القاضي عبد النّبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.

٣- الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، تأليف الدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة المجمع العلمي،٢٠١٠م.

٤- شرح ٱبن عقيل على ألفية ٱبن مالك، تأليف ٱبن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٥- عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، تأليف مجموعة باحثين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٣م.

٦- في أصول النحو ، تأليف سعيد الأفغاني، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٩٤م.

٧- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، تأليف أ.د.حفناوي بعلي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧م.

٨- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، تأليف محمد سمير اللبدي، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م.

٩- منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكي والخطيب القزويني، تأليف عويض حمود العطوي، جامعة تبوك، كلية المعلمين.

١٠- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تأليف محمد علي التهانوي، تحقيق د.علي دحروج، مكتبة لبنان،بيروت- لبنان،ط ١، ١٩٩٦م.

١١- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، تأليف عبد الله محمد الغذامي، الدار البيضاء، لبنان- بيروت،ط ٢، ٢٠٠١م.

هوامش البحث:

(١) ينظر: دستور العلماء (القاضي الأحمد نكري): ٢/ ١٤١.

(٢) ينظر : معجم المصطلحات النحوية والصرفية (محمد سمير اللبدي):١٩٩.

(٣) أصول النحو (الأفغاني):١٦ وما بعدها.

(٤) ينظر منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكي والخطيب القزويني (عويض بن حمود العطوي):٤٩٧.

(٥) ينظر: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه (الحديثي):٣٢.٣٣.٣٦.٦١.٧٧.

(٦) منهج التعامل مع الشاهد البلاغي :٤٩٨.

(٧) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن(حفناوي بعلي):٥٢.

(٨) جماليات النقد الثقافي(أحمد جمال المرازيق):١٧.

(٩) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن:٥١.٥٤.

(١٠) ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية (عبد الله الغذامي):٨٧.٨٨.

(١١) ينظر: عبد الله الغذَّامي والممارسة النقدية: ٩٤.

(١٢) النقد الثقافي: ٧٥.

(١٣) ينظر: النقد الثقافي: ٧٤.

(١٤) ينظر: شرح ٱبن عقيل على ألفية ٱبن مالك:٢/٩.

(١٥) ينظر : شرح ٱبن عقيل:١/٢٨٣.٢٨٤. ومن ضمير المخاطب أيضا: [١٥٧]. لَاتَجْزَعِي إنْ مُنْفِسٌ أَهلَكْتُه... في موضوع الاشتغال ومنه الرقم:

(١٦) ينظر: شرح ٱبن عقيل: ٣/ ١٢٠.

(١٧) ينظر: شرح ٱبن عقيل:١/١٩

(١٨) ينظر: دستور العلماء:٣/٣٩

(١٩) ينظر : شرح ٱبن عقيل:١/١٤١.

(٢٠) ينظر: شرح ٱبن عقيل:١/١٨٢.

(٢١) ينظر: شرح ٱبن عقيل ١/٢١٣.

(٢٢) ينظر دستور العلماء:٢/١٤١.

(٢٣) ينظر شرح ٱبن عقيل:١/٢٩٠. وينظر الشاهد : ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢٤) دستور العلماء:٣/٢٧١.

(٢٥) ينظر شرح ٱبن عقيل:٣/٩٤. وينظر: ٣٥٥.

(٢٦) ينظر دستور العلماء:٢/١٩٤.

(٢٧) ينظر شرح ٱبن عقيل:٣/١٧٥.

(٢٨) ينظر موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم:٢/١١١٨.

(٢٩) ينظر شرح ٱبن عقيل:٣/٢٤٩.

(٣٠) ينظر دستور العلماء: ٢/ ١٦٨.

(٣١) ينظر: شرح ٱبن عقيل:٢/٤١.

(٣٢) ينظر: شرح ٱبن عقيل:١/٣٠٤. ينظر الشاهد : ٢٥، ٣٤٥.

(٣٣) ينظر: المصدر نفسه:١/١٩.

(٣٤) ينظر: المصدر نفسه:٤٥/١. وينظر الشاهد : ١١.

(٣٥) ينظر:شرح ألبن عقيل: ١٨٥/١.

(٣٦) ينظر: شرح ألبن عقيل:٢٨٧/١.

(٣٧) ينظر المصدر نفسه :٢٧٦/١. ينظر: ١٥٧، و: ١٨٩.

(٣٨) ينظر: المصدر نفسه:٩/٢.

(٣٩) ينظر: المصدر نفسه:٢١٢/٣.

(٤٠) معجم المصطلحات النحوية والصرفية:١٠٦.

(٤١) ينظر شرح ألبن عقيل:١٩٣/٣. ومنه [٣٠٨] ضربت صدرها إليَّ و قالت يا عديًا لقد وقتك الأواقي

(٤٢) ينظر: شرح ألبن عقيل:٢١٦/٢. ومنه: [٢٧٤] تقول عرسي وهي لي في عومرة بئس امرأ وانني بئس المرة

(٤٣) ينظر: شرح ألبن عقيل: ٢/ ٢٤.

(٤٤) الغذامي والممارسة النقدية والثقافية:٤٦.

(٤٥) النقد الثقافي قراءه في الأنساق الثقافية العربية:٧١.

(٤٦) ينظر: النقد الثقافي: ١٩.

(٤٧) ينظر: شرح ألبن عقيل:٢١٣/١.

(٤٨) ينظر: شرح ألبن عقيل:١٤/٣.

(٤٩) ينظر : شرح ألبن عقيل:١٨٥/٣.

(٥٠) ينظر: شرح ألبن عقيل:٩/٢

(٥١) ينظر: شرح ألبن عقيل:٣١٠/١.

(٥٢) ينظر: شرح ألبن عقيل: ١/ ١٨٥.

(٥٣) ينظر: شرح ألبن عقيل: ١/ ١٨٥.

(٥٤) ينظر: شرح ألبن عقيل:٩٧/٢.

(٥٥) ينظر: شرح ألبن عقيل:٢٠٥/٢.